

التحول الهوياتي في المجتمع العربي
- من الكائن الاجتماعي إلى الكائن الرقمي -

Identity transformation in Arab society
- From the social object to the digital object -

ماحي فتحي
اشراف: أ.د/ قريصات الزهرة
جامعة ابن خلدون تيارت
mahitfethi@gmail.com

المخلص:

لقد سعت المجتمعات منذ بداية البشرية إلى ضمان تميزها اجتماعيا وثقافيا لذلك اهتمت بأن يكون لها هوية تميز شعوبها عن بعضهم البعض وتُرقى الوعي بالذات الثقافية والاجتماعية كما ترفع بذلك من شأن أفرادها غير أن التحولات التي عرفها ويعرفها المجتمع حاليا قد بددت بشكل كبير كل الخصوصيات وأكسبت الفرد مميزات غيرت من خصائص هويته الأصلية إلى أن أضحي غريبا داخل مجتمعه، هذه التحولات التي مست جميع مجالات الحياة هي نتاج تطورات فكرية وأخرى مادية شكلت بيئة حديثة تطورت إلى أن بلغت أوج صورها في ظل التطورات التكنولوجية الراهنة، فما هي أبعاد الهوية في عالم افتراضي رقمي لا يعترف بالحدود الثقافية والمعرفية ؟
الكلمات المفتاحية: (التحولات، الهوية، العالم الافتراضي).

abstract:

Since the beginning of mankind, societies have endeavored to ensure their social and cultural distinction, so they have an identity that distinguishes their peoples from one another and promotes cultural and social awareness, as well as their members. However, Changed from the characteristics of his original identity until he became a stranger within his society. These transformations that touched all spheres of life are the product of intellectual and material developments that have formed a modern environment that has evolved to the height of its image in light of the current technological developments. Mai does not recognize the cultural and cognitive boundaries ?

Key words: (transformations, Identity, The virtual world)

مقدمة:

لقد سعت المجتمعات منذ بداية البشرية إلى ضمان تميزها اجتماعيا وثقافيا لذلك اهتمت بأن يكون لها هوية تميز شعوبها عن بعضهم البعض وتُرقى الوعي بالذات الثقافية والاجتماعية كما ترفع بذلك من شأن أفرادها غير أن التحولات التي عرفها ويعرفها المجتمع حاليا قد بددت بشكل كبير كل الخصوصيات وأكسبت الفرد مميزات غيرت من خصائص هويته الأصلية إلى أن أضحي غريبا داخل مجتمعه، هذه التحولات التي مست جميع مجالات الحياة هي نتاج تطورات فكرية وأخرى مادية شكلت بيئة حديثة تطورت إلى أن بلغت أوج صورها في ظل التطورات التكنولوجية الراهنة.

ساهمت التطورات التكنولوجية الحديثة ومختلف وسائل الإعلام والاتصال وشبكة الانترنت على ظهور بيئة تكنولوجية رقمية خلقت لدى المجتمعات قضايا معاصرة وأنتجت في ذات الوقت قيما وسلوكيات وطرائق تعبيرية وقولية حديثة كما حالت دون أبعاد القيم الوراثية للفرد فأنتجت ثقافات حديثة وتوالت على إثرها الأحداث الفكرية والمهنية فنشأت التجارة الرقمية والنشر الرقمي والإرهاب الرقمي وغيرها، إذ يمكن الجزم بأن عصر الرقمية سيطر على كل اكتشافات البشرية بل سيتعداها لتحديد أبعاد وأشكال هوياتنا، وهو ما أشار إليه المختصون في هذا المجال من بينهم ما جاء به الدكتور عبد الرحيم العطري في مقال له بعنوان "احتمالات التحول القيمي - صيغ التفاوض والترمي" الذي وضح بأن المجتمعات تتجه لإنتاج مفهوم جديد للكائن الاجتماعي فبدل أن يوصف بأنه كائن اجتماعي، كائن رمزي كائن طقوسي أو كائن ثقافي، يمكن أن يوصف وصفا جديدا بأنه كائن رقمي تتحدد أبعاده هويته وخصائصها بما يمتلكه من صفحات بالفضاء الافتراضي، كم من حساب إلكتروني يمتلك، كم من معجبين لديه، ربما تعريف الكائن الاجتماعي هو في اتجاه الرقمنة لا في اتجاه الاجتماعي⁽¹⁾.

تبقى الهوية بأبعادها لدى العديد من الدارسين والمختصين الذين ينطلقون من مفهومها التقليدي ميزة اجتماعية وثقافية بعيدة كل البعد عن ما هو تقني أو رقمي هذه الرقمنة التي قلبت المعادلة التقليدية وأرست ما جاءت به الانترنت من قيم جديدة غريبة أثرت على السلوكيات ومنها على الهوية وخلفت عالمان متوازيان عالم واقعي تقليدي وعالم رقمي حيث يعيش الإنسان المعاصر على حدودهما في صراع القيم الموروثة والقيم الوافدة عبر نافذة الانترنت. تحاول الإشكالية المطروحة رصد أبعاد الهوية في عالم افتراضي رقمي لا يعترف بالحدود الثقافية والمعرفية التي تساهم بشكل كبير في نحت خصائصها وإرساء قيم مغايرة لتلك السائدة داخل كل مجتمع وحسب ثقافته، عبر الإجابة عن التساؤلات التالية:

1- ما هي حدود التلاقي بين العالمين الافتراضي والواقعي التي يعيش الإنسان المعاصر على نقاط تماسهما.

2- هل يمكن تحديد أبعاد التحول القيمي في ظل التحولات التكنولوجية الراهنة.

1- أبعاد الهوية في المجتمع المدني:

يعد الحديث عن الهوية من المواضيع التي تتداخل فيها أفكار الباحثين والمهتمين وتصل أحيانا إلى الاختلاف، لا سيما في المجتمعات العربية والإسلامية نظرا لعدم الفصل في بعض المحددات الأساسية التي تؤطر مجتمعاتنا العربية. تتناما هذه الأفكار حول الهوية عندما ترتبط بالعالم الافتراضي مما يتطلب منا محاولة ضبط هذا المفهوم وتحديد خصائصه.

1-1 ضبط مفهوم الهوية وخصائصها:

جاءت كلمة "هوية" في قواميس ومعاجم اللغة العربية بمعنى بئر بعيدة المهواة وعرفت أيضا بأنها وحدة الذات، كما عرفت بأنها حقيقة الإنسان المطلقة وصفاته الجوهرية وسنحاول فيما يلي توضيح مفهوم الهوية بناء على ما قدمته مختلف التخصصات:

التعريف اللغوي: فإن الهوية هي ما يجعل من شكلين متشابهين في اللون والشكل وهي مجموعة ظروف أو وضعيات تجعل من شخص ما مميزا وخاصا⁽²⁾ كما تعرف بأنها وحدة الذات⁽³⁾ في حين أشار جون بيار بلوخ إلى أن الهوية تعد حالة الكينونة المتطابقة بإحكام أو المتماثلة إلى حد التطابق التام أو التشابه المطلق والكينونة هنا تتعلق بالشيء المادي أو بالشخص الإنساني⁽⁴⁾.

إذ يمكن الإشارة في هذا الصدد إلى التطابق التام ما بين الشيء وظاهره أو بتمائله مع جوهره العميق. **التعريف الفلسفي:** تعرف الهوية فلسفيا بأنها حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره⁽⁵⁾. كما حدد جون بول سارتر هوية الشخص بأن "الأنا كائن يستدعي حضور كيان آخر"⁽⁶⁾ ولعل المقصود من وراء عبارة سارتر هذه هو أن علاقة الفرد بكيان آخر تستلزم سياقاً معيناً غالباً ما يكون جماعياً كالأسرة مثلاً أو جماعة الأقران وغيرها إلخ بحيث تضم المعايير والقيم والقوانين.

التعريف النفسي: يستعمل مفهوم الذات في الأبحاث الانجلوساكسونية للتعبير عن الهوية ويعتبر وليم جيمس من الأوائل الذين استعملوا هذا المفهوم، حيث اعتبر الذات بأنها مجموع كلي لما يستطيع الفرد أن ينسبه لنفسه.

الهوية هي جملة من المعايير التي تمكن من تعريف فرد ما، وهي شعور داخلي ويتعدى للوصول إلى الشعور بالوحدة والانسجام والانتماء وبالقيمة والاستقلالية والثقة⁽⁷⁾. كما اعتبرها نظاما من تصورات الذات ونظام مشاعر إزاءها⁽⁸⁾.

كما يمكن اعتبار هوية الشخص مجموعة الخصائص الجسدية والنفسية والأخلاقية والقانونية والاجتماعية والثقافية التي تمكن الشخص من تعريف نفسه وتصور ذاته وتعريف غيره بها أو التي يستطيع الغير أن يعرفه بها، كما أنه لا وجود للهوية من دون وجود وشعور بذلك الوجود، وهذا يقوم على وعي الذات ينطوي على إدراك لتمييزها عن الآخرين ولخصوصيتها في أن معاً، مهما كانت درجة ذلك الإدراك حتى لو كان إدراكاً أولياً⁽⁹⁾.

لا يمكن اعتبار الهوية كنتيجة سياق معين ولا كمرجع ذو دلالة تدرك بصفة موضوعية فصورة الذات هي بناء ذاتي متجدد باستمرار، يتناوب بين المشاعر والانفعالات التي تختلف في اتجاهها وطبيعتها، فالهوية هي العنصر الذي يحس الفرد بواسطته بأنه موجود كشخص في كل أدواره ووظائفه ويحس بنفسه مقبولا ومعترفا به من طرف الغير ومن جماعته الثقافية.

التعريف الاجتماعي: ليست الهوية بنية مغلقة وإنما هي بنية متحولة باستمرار، ولكن على محور ثبات. إنها مصطلح يعكس نفسه تحت مجهر الزمن ومعايير، وفي سياق علاقة تبادلية تنهض على تفاعل متحقق أو مكبوح، مع معطيات الوجود ومكونات المحيط، بحيث لا يمكن التعامل معه بمعزل عن إدراك مناحي تأثيره بالسلطة الزمنية للتاريخ، وبمعطيات حركة الحياة وغايات الحراك أو السكون الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والقانوني. لأنه من البديهي أن يفتح الوجود الواعي على الآخرين ويحتاج إليهم ولا يظهر تمايزه إلا بالاحتكاك بهم، ولكن حضوره ومشروعه وقوة وجوده كل ذلك يتجلى دائما بوعيه لخصوصيته وهويته التي تحفظ له ذلك التمايز الذي تكون عبر تجارب وبيئة وزمن وموروث أجيال من التاريخ والخبرة⁽¹⁰⁾.

لم تتفق كل التعاريف التي تم عرضها على ضبط وتحديد مفهوم للهوية بشكل قطعي غير أنها لم تختلف أيضا بأن للهوية جانب شخصي ذاتي وآخر اجتماعي حيث أجمع المختصون في أن كل محاولة لإعطاء تعريف شامل يرضي كل التخصصات ستظل بدون جدوى.

1-2 خصائص الهوية:

- الهوية اتجاه وأهداف بالنسبة لحياة الفرد من خلال القيم والأهداف المتحققة، وتساعد في فهم الذات والاستمرارية للذات عبر الزمان والمكان⁽¹¹⁾.

- الهوية ترتبط ارتباطا لا يمكن فصله بالتميز، كما أنها نسبية، ولكل الأشياء هوية مؤقتة وانتقالية، بينما تطورها وتغيرها مطلقا⁽¹²⁾.

- الهوية عملية أيديولوجية، حيث تصطف من قبل نخبة سياسية معينة وذلك بانتقاء عناصر معينة لتثبيتها، ثم تحدد الهوية الأصلية من خلالها وتضفي عليها هالة من القداسة والسمو⁽¹³⁾.

- الهوية عملية اعتقاد وإرادة، ذلك أن الاعتقاد والإرادة وليس الإلزام هما ما يميزان الهوية فالهوية ليست القانون، ولا يجب أن تكون مساوية له فالإسلام مثلا - وهو أحد المركبات الأساسية للهوية في كل الأقطار العربية قد يتعارض مع القانون - جزئيا أو كليا. فالالتزام بتعاليم الإسلام لا تنبع هنا من الإلزامية القانونية، بل من اعتقاد الشعوب⁽¹⁴⁾.

- الهوية عملية ديناميكية، كونها تتكون من مجموعة من العناصر، فهي بالضرورة متغيرة في ذات الوقت الذي تتميز فيه بالثبات، فهي كالكائن البشري الذي يولد ويشب ويشيخ، ومع المراحل العمرية المختلفة تتغير ملامحه وتصرفاته وذوقه وكل عناصر شخصيته لكنه يبقى هو ذاته⁽¹⁵⁾.

الهوية جزء مكمل للحياة الاجتماعية، وهي تتشكل فقط عبر التمييز بين هويات مختلف الجماعات والتي يمكن ربطها بأناس آخرين، والإطلاع على مختلف الهويات يعطي إشارة عن نوع الفرد الذي تتعامل معه، ومن ثم كيفية الارتباط به (16).

3-1 مفهوم المجتمع المدني:

تغير مفهوم المجتمع المدني كباقي المفاهيم في العلوم الإنسانية والاجتماعية من حيث المعنى والدلالة، حيث عرفه توماس هوبز غير مميز بينه وبين الدولة على النحو التالي "المجتمع المنظم سياسيا عن طرق الدولة القائمة على فكرة التعاقد" (17)،

أما في القرن الثامن عشر اكتسبت فكرة المجتمع المدني معنا مغايرا كونها تشير إلى موقعها الوسيط بين مؤسسات السلطة وبقية المجتمع، عندما اعتبره جان جاك روسو "هو مجتمع صاحب السيادة، باستطاعته صياغة إرادة عامة يتماهى فيها الحكام والمحكومون". كما نجد نفس الاتجاه عند مونتسكيو الذي ربط المجتمع المدني "بالبنى الأرستقراطية الوسيطة المعترف بها من قبل السلطة القائمة بين الحاكمين والمحكومين". وكذلك لدى الفيلسوف الألماني هيجل الذي أكد الموقع الوسيط للمجتمع المدني "بين العائلة والدولة بحيث يفصل بينهما" دون أن يغفل حقيقة التداخل الموجود بين المجتمع المدني والمؤسسات المذكورتين بحيث يخترق الواحد منهما الآخر. ونجد عند توكفيل اقترابا من المعنى الحديث المتبادل اليوم إذ يركز على أهمية "المنظمات المدنية النشطة ودورها في إطار الدولة بالمعنى الضيق للكلمة". وفي الأدبيات الحديثة بخاصة ذات التوجه الراديكالي ارتبط مفهوم المجتمع المدني باسم أنطونيو غرامشي المفكر الشيوعي الإيطالي الذي حاول تجاوز التحديد الماركسي كونه يعتبر المجتمع المدني مجتمعا برجوازيا بالأساس، وقد اعتبره غرامشي مجال تحقيق الهيمنة في ظل سيادة الرأسمالية بمعنى فرض النفوذ الثقافي والأيدولوجي للبرجوازية، بينما تكون الدولة مجال تحقيق السيطرة (18).

2- الهوية الرقمية في المجتمع الافتراضي:

1-2 ضبط مفهوم الهوية الرقمية:

هي الشخصية التي يتم إنشاؤها من طرف المستخدم الإنسان الذي يعمل كصلة وصل بين الشخص الطبيعي والشخص الافتراضي الظاهر للمستخدمين (19). هي السمات والمواصفات التي يقدمها الفرد الطبيعي للآخرين عبر الانترنت فتكون عملية الاتصال تتم بين ثلاثة أطراف وليس طرفين وهي الشخص العادي والهوية الافتراضية والأشخاص الآخرين (20). الهوية الرقمية هي مجموع الصفات والدلالات والرموز التي يوظفها الإنسان للتعريف بنفسه في الفضاء الافتراضي، فيتفاعل ويتواصل على أساسها مع الآخرين، بحيث قد لا يتوافق مضمونها مع هويته الحقيقية في الواقع الاجتماعي (21).

2 - 2 خصائص الهوية الرقمية:

تتولى الهوية الافتراضية عملية تنشئة نفسها بالانتقال المستمر داخل الفضاء الافتراضي الذي يكون كحيز لتبادل قيم مختلفة وليدة أنساق ثقافية متباينة ما يجعل الهوية الافتراضية طرفا في عملية تفاوض قد تدغم خصائصها أو تكسبها دلالات مختلفة، كل هذا يتشكل حسب قدرة الفرد على المحافظة على العناصر الأساسية المشكلة لخصائص هويته وقدرته على المراوغة لتجنب آليات الهيمنة التي قد يتعرض لها في الفضاء الافتراضي خاصة إذا أخذت عملية التواصل الإلكتروني طابع التفاعل الاستجابي الفوري بتغيب التفكير في طبيعة الطرف الآخر في العملية الاتصالية، مما يتطلب التركيز على أهمية استحضار البعد القيمي لتحقيق عملية تواصلية ذات معنى تنعكس على الممارسة الواقعية.

تبدو خصائص الهوية الرقمية في الفضاء الافتراضي بمثابة:

- انعكاس مباشر لتمثلات جزء بسيط من الذات الفاعلة في الواقع، سواء من حيث طبيعة قيمها أو تصوراتها التي تؤسس وجودها الاجتماعي والرقمي على حد سواء، بحكم أن جزءاً مهماً من تمثلاتها في المجتمع الشبكي قد تكون مزيفة وتعبر عن مثل وتطلعات لا تمت بصلة إلى الواقع، لكنها في الوقت ذاته، قد تعكس بعض المضامين التي تبحث لها عن وجود في الواقع، لهذا قد تبرز ممارساتها المقنعة أو المزيفة

في الفضاء الافتراضي محاولاتها للتخلص من القيود الاجتماعية في الواقع الفعلي، مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار اختلاف تلك التمثلات والدلالات باختلاف مواصفات الفئات الاجتماعية، وطبيعة المجموعات الافتراضية التي تشترك فيها، والغايات التي تسعى إليها، عليه فإن ممارسات عرض الذات في الفضاء الافتراضي، يمثل رهانا اجتماعيا حقيقيا بالنسبة إلى المستخدمين من حيث درجة تمثلهم لقيم الاجتماعي، وكيفية تفاعلهم معها، وكيفية تقبل الآخرين لهم (22).

- يتمثل الأشخاص الرقميون بما يرغبون أن يتمثلوا به، أي يتظاهرون بالأشياء التي يحبونها في الحديث وفي التعريف بأنفسهم وبآرائهم وأفكارهم وغير ذلك، وليس شرطاً أن يكونوا كما هم في واقع الأمر، لكن هذا لا ينفي أن كثيراً منهم يحاول أن يكون صادقاً في كل ذلك ولكن الأمر المشترك في معظم المتمثلين افتراضياً، هو تمثلهم بما يريدون من الآخرين أن يروهم به (23).

كما توصلت الباحثة الفرنسية فاني جورج في دراسة بعنوان " أسس عرض الهوية الافتراضية على شبكات التواصل الاجتماعي " إلى بعض الخصائص للهوية الرقمية كما يلي:

- تبقى الهوية الرقمية التي تتجلى خصائصها داخل المجتمع الافتراضي كجزء من الهوية الاجتماعية، وقد تبني الهوية الرقمية خصائصها من خلال جمعها للقيم والمبادئ التي اكتسبتها الفاعل عبر مراحل تنشئته الاجتماعية والإمكانات التي يتوفر عليها الجهاز ويتجلى ذلك من خلال استخدام رموز على الشاشة تحمل دلالات ومعان متعددة سواء كانت كلمات أو نصوص، أو صوراً أو مقاطع فيديو ذات أبعاد دلالية تساهم في التعبير عن معناها حيث تنقسم الهوية الافتراضية إلى ثلاثة عناصر رمزية تعكس مظاهرها في المجتمع الافتراضي، تبرز ملامحها، والتغيرات التي تطرأ عليها وهي كالآتي:

الهوية التصريحية: تبرز من خلال المعلومات التي يجري إدخالها من قبل صاحب الحساب مثل الاسم، تاريخ الميلاد، الصورة... الخ (24).

الهوية النشطة: هي تلك الهوية التي تجسدها التقارير الدورية من نصوص مكتوبة وصور ومقطوعات مصورة أو غنائية.... إلخ التي تشكل نشاطات المستخدم كعدد الأصدقاء أو انضمام الأفراد إلى مجموعة.

الهوية المحسوبة: الخاصية الثالثة للهوية الرقمية تبرز من خلال متغيرات كمية أو كيفية تعد من خلال حسابات النظام وتعرض على الصفحة، توضح عدد الأصدقاء، عدد المجموعات، تواريخ مهمة حيث تسمح هذه الأبعاد الثلاثة بالتحليل الكمي لتغيرات ملامح الهوية وسياق توجهاتها في الفضاء الرقمي على خلاف الهوية التصريحية فالهوية المحسوبة لا تبرز من خلال المعلومات التي يجري إدخالها من قبل صاحب الحساب (25).

تمكننا الخصائص السالفة الذكر من إدراك أهمية الهوية الرقمية في المجتمع كما تمكننا من تحديد طبيعة الرهانات التي تتعرض لها الذات الفاعلة في فضاء افتراضي مفتوح على مختلف الثقافات العالمية، والذي يتيح للذات الفاعلة باب التواصل الرقمي وعملية التبادل المعلوماتي الذي يتخذ شكل الرموز التي يمكن إحصاؤها المتوفرة عبر شبكات التواصل الاجتماعي كما أنه من الضروري تسليط الضوء على الهويات النمطية الموجودة في الفضاء الافتراضي خاصة تلك التي تتميز بدرجة تأثيرها الكبير.

إن المجتمع الافتراضي يُخضع أطراف العملية التواصلية لعملية تنشئة إلكترونية مستمرة بحكم تفاعلها ضمن فضاء ثقافي يتميز بدرجة من الانفتاح لا حدود لها متجاوزاً بذلك الفضاء الثقافي التقليدي المحدد مسبقاً.

تؤكد الدراسة أن نمط الهوية النشطة التي تنمي هويتها الرقمية بحضور افتراضي وتفاعل وتجديد معلوماتي على صفحاتها والاندماج في مجموعات افتراضية هي العنصر الأساسي في تركيبة الهوية الافتراضية.

كما أنجزت الباحثة التونسية سهام النجار (26) بحثاً حاولت من خلاله رصد الممارسات الاجتماعية المرتبطة بالانترنت، وعلاقتها بتغير الهويات والروابط في المجتمعات المغاربية سعت من خلاله إلى إبراز دور شبكة التواصل الاجتماعي فايسبوك في تعزيز الرابط الاجتماعي بين الجماعات المهاجرة عبر

تحليل مضمون الصفحات الشخصية لمستخدمين من ذوي الاهتمامات المشتركة من الأقليات المهاجرة، حيث اتجهت إلى بحث عناصر الهوية المستخدمة للتعريف بنفسها. وعليه استطاعت الدراسة أن تكشف عن وجود ثلاثة نماذج من الهويات الافتراضية وهي: **هوية متجذرة**: تضم الأقلية المهاجرة التي تعتر بأصولها وتفتخر بعرض ذلك عبر صفحات موقع التواصل الاجتماعي face book. **هوية ثنائية القطب**: تتشكل ضمنها أقلية مهاجرة تعبر عن ارتباطها العميق وانتمائها للوطن الأم، والبلد المستقبل في نفس الوقت.

هوية عالمية: تتقبل كل الثقافات العالمية ومتفتحة عليها (27). وتجدر الإشارة إلى الانتقال الحاصل للهوية من هوية مغلقة إلى هوية متحولة لتصل إلى حد هوية هجينة على حد تعبير الباحثة.

كما تبين الباحثة أن الروابط الاجتماعية التي جرى تعزيزها عبر الشبكة لا تخفي حقيقة التغيرات التي تعرفها الممارسات الهوياتية بفعل سهولة التواصل والتفاعل عبر الفضاء الافتراضي والتي تترجم مظاهر الاستبطان الهوياتي في فضاء ثقافي كوني يساهم بطريقة أو بأخرى في إعادة هيكلة الذات الجماعية ليتأكد لنا من جديد تلك التأثيرات (28).

من أخلاقيات العالم الافتراضي، أنه لا يكفي المستخدم أن يكون مجرد مستهلك للمواد المنشورة على الشبكة أيا كان موضوعها، ولكن عليه أن يكون أيضاً منتجاً لها من خلال المشاركة والتعليق على ما يقرأ، فهو مجتمع تفاعلي بكل المقاييس. لهذا، بدأت تتبلور تخصصات اجتماعية جديدة، تهتم بدراسة أنماط تفاعل المستخدمين وأنماط شخصياتهم واهتماماتهم ودورها في تشكيل ثقافة المجتمع وتنميتها (29).

3 - 2 المجتمع الافتراضي:

يتخذ المجتمع الافتراضي سمات متميزة تجعله فضاء مثالياً للتواصل خاصة بالنسبة إلى الأجيال الشابة التي أضحت الثقافة الرقمية المرتكزة على الصورة تشغل حيزاً مهماً من حياتها بكل ما تحمله من رموز ودلالات، قواعد التواصل والتبادل، وعلاقات اجتماعية وجماعات افتراضية، التي أوجدت نظاماً جديدة لإثبات الذات بعد أن أصبح جزء من الحياة الاجتماعية للفرد حياة رقمية بامتياز، ما انعكس على ثقافة الشباب، وبخاصة كونهم الشريحة الأكثر تأثراً بفاعليتها، والتي أضحت أكثر ارتباطاً به ما أثر في تصوراتها واتجاهاتها في الواقع (30).

يعد المجتمع الافتراضي بمثابة تجمعات اجتماعية، تنشأ من الشبكة حين يستمر أناس بعدد كاف في مناقشتهم علنياً لوقت كاف من الزمن بمشاعر إنسانية كافية لتشكيل شبكات من العلاقات الشخصية في الفضاء السيبراني (31).

أما الباحث الاجتماعي نديم منصوري، فيعرف المجتمع الافتراضي بأنه مجموعة من الأفراد الذين يتشاركون عبر شبكة الانترنت، لفترة زمنية لتحقيق غاية أو هدف أو هواية، من خلال علاقة اجتماعية افتراضية تحددتها منظومة تكنو - اجتماعية.

التفاعل داخل المجتمع الافتراضي يأخذ صوراً مختلفة، فيمكن القول أن علاقات الفاعلين الاجتماعيين الافتراضيين تتحدد درجات ارتباطها ومدى استمراريتهما بحسب طبيعة القيم المشتركة بينهم إذ يمكن استخلاص تعريف للمجتمع الافتراضي من التعاريف السابقة للمختصين بأنها جماعات افتراضية يتفاعل أفرادها ضمن سياق ثقافي محدد زمنياً وأهداف مشتركة، لإشباع حاجات نفسية اجتماعية تترتب عنها علاقات افتراضية تفرضها حدود التلاقي بين العالمين الافتراضي والواقعي.

إن المجتمع الافتراضي يبدأ بتحديد المجتمع (الفئة العمرية، النوع، الطبقة ...) توضيح أهدافه ومخططاته (أهداف ثقافية، اجتماعية، سياسية...)، يستمر في مراحل متعاقبة يزداد من خلال مشاركة الأعضاء وحضورهم الاتصالي زيادة الأعداد وحجم المشاركين، يتم ذلك من خلال العديد من الأنشطة (عرض صور، وضع تعليقات، رسوم، تفاعلات ...) للوصول إلى التمثيل التنظيمي (32).

4 - 2 الوجود الافتراضي:

يتشكل من خلال الحضور المستمر للفاعل الافتراضي على الفضاء الافتراضي بهويات خاصة مميزة ودائمة من خلال ما يلي:

- بروزه كفاعل أو متفاعل أثناء عمليات التواصل عبر الشبكة من خلال المشاركة، والتعليق والتعقيب، وليس مجرد مترقب أو ناقل لمعلومة فحسب.
- وتيرة استخدام التواصل المتزامن الفوري وغير المتزامن على الشبكة، ذلك أن طبيعة التواصل عبر الشبكة، تستلزم الردود والاستجابات الفورية على الشبكة، والتي تغير منطق التواصل.
- طبيعة الآثار التي يخلفها وراءه على صفحته بعد لحظة التواصل.
- حجم الاطلاع والاستجابة والردود التي تحظى بها صفحته على الشبكة.
- درجة ارتباط المستخدم بهويته الافتراضية من خلال التحديثات التي يجريها على الصفحة، ويتقاسمها مع أصدقاء الصفحة، وعلاقة ذلك بممارساته الواقعية (33).

إن الحضور الافتراضي يرتبط أساسا بالحضور الاجتماعي، الأمر الذي تؤكد العلاقات التي أصبحت تتخذ طابع العلاقات الاجتماعية الافتراضية وهو ما أشار إليه المختصون في هذا المجال من بينهم ما جاء به الدكتور نديم منصور في كتابه سوسيولوجيا الانترنت الذي يؤكد على ثنائية الحضور الافتراضي والانقطاع الافتراضي كحالتين متلازمتين، تعبران عن حدود التلاقي بين المجتمعين الافتراضي والواقعي.

3 - التحول القيمي نحو الافتراضي:

تعرف القيم بأنها تصورات توضيحية لتوجيه السلوك في الموقف، تحدد أحكام القبول والرفض وتتبع من التجربة الاجتماعية وتتوحد بها الشخصية، وهي عنصر مشترك في تكوين البناء الاجتماعي والشخصية الفردية، فهي من مكونات الموقف الاجتماعي، لأنها تتضمن نظام الجزاءات المرتبط بنظام الأدوار في البناء الاجتماعي، كما أنها تكون جزء من لب الشخصية الاجتماعية، لأنها حسيطة أو نتاج عملية التنشئة الاجتماعية، والقيم قد تكون واضحة تحدد السلوك تحديدا قاطعا، أو غامضة متشابهة تجعل الموقف ملتبسا مختلطا (34).

بعد عصرنا هذا عصر التطورات التكنولوجية والانفتاح الثقافي وعصر التحولات العميقة والمتسارعة التي تقوم أساسا على المعرفة العلمية واستخدام المعلومات المتدفقة بمعدلات سريعة.

لقد أحدثت مميزات وخصائص هذا العصر تغيرات عميقة في تمثيلات الأفراد اتجاه أدوارهم وتفاعلاتهم الاجتماعي كما غيرت طرائق تعاملهم مع الأحداث كما تغيرت المعايير ليصبح مقياس تطور الفرد وحضارته هو مدى اندماجه في الحضارة العالمية والأخذ بمعطيات الثورة المعلوماتية ولعل أبرز جوانب هذه الأخيرة هو ذلك الخاص بالتطورات الهائلة لعالم الحاسوب فهو يزداد سرعة وكفاءة وتخصصا وانتشارا حيث انتقل من المغناطيسي إلى الضوئي إلى الرقمي، ومن الثابت إلى المتحرك.

قلصت التكنولوجيا الحديثة لوسائل الإعلام والاتصال والفضاء الافتراضي المسافات بين المجتمعات وذوبت الحدود الجغرافية، أرسى خدمات كثيرة ومتنوعة، سرعتها فائقة وجودتها عالية نشرت الثقافات ودعمت المعتقدات، أدى استخدامها إلى تغيير بعض القيم الاجتماعية كقيمة العلاقات الأسرية والقريبة، وقيمة الانتماء والاندماج الاجتماعي الأمر الذي أثر في تشكيل وبناء المجتمع باعتباره نسق تحكمه معايير قيمية.

تحول الفرد بفعل اندماجه في الفضاء الافتراضي وتواجهه الدائم والمستمر فيه من كائن اجتماعي إلى كائن رقمي حيث نتج عن ذلك عزله وتفكك روابطه الاجتماعية وتراجع علاقاته، فحصل الفرد على متطلباته إلكترونيا من دون حاجة إلى تواجده ضمن إطار اجتماعي دفع به إلى الانعزال تدريجا من المجتمع البشري لينصهر ضمن المجتمع الإلكتروني، هذه العزلة ولدت لدى الفرد اغترابا عن الواقع الاجتماعي.

إن ارتباط الكائن الاجتماعي بعلاقات مع مجموعات افتراضية وقضائه لجميع متطلبات حياته عدا البيولوجية منها على صفحات المجتمع الافتراضي أدى إلى تحوله إلى كائن رقمي تتحدد أبعاد هويته بمدى تغذيته لصفحته على مواقع التواصل الاجتماعي وتنشئتها بالانتقال داخل الفضاء الافتراضي. تتولى الهوية الافتراضية عملية تنشئة نفسها بالانتقال المستمر داخل الفضاء الافتراضي الذي يكون كحيز لتبادل قيم مختلفة وليدة أنساق ثقافية متباينة، ما يجعل الهوية الافتراضية طرفاً في عملية تفاوض قد تدعم خصائصها أو تكسبها دلالات مختلفة، كل هذا يتشكل حسب قدرة الفرد على المحافظة على العناصر الأساسية المشكلة لخصائص هويته، وقدرته على المراوغة لتجنب آليات الهيمنة التي قد يتعرض لها في الفضاء الافتراضي خاصة إذا أخذت عملية التواصل الإلكتروني طابع التفاعل.

الخلاصة:

إن تصنيف المختصين لنماذج وخصائص الهوية الافتراضية في المجتمع الافتراضي يتطلب منا الأخذ بعين الاعتبار ما يستوجب على الهوية التصريحية فعله من الإفصاح على كل البيانات الشخصية والتي يصرح بها المستخدم، وكذا مختلف نشاطاته حسب ما تستجبه الهوية النشطة من منشورات على الصفحة والتي تحدد مواقفه وملامح هويته الافتراضية، وما تتميز به عن الآخرين، كما أن الهوية الرقمية تتأثر بدرجة اندماج المستخدم في المجموعات الافتراضية ذات الاهتمام المشترك بالإضافة إلى استجابته على الصفحة، سواء كفاعل أو متفاعل أو منفعل أو مجرد ناقل لمعلومة أو مترقب لها، ذلك أن طبيعة تفاعله في الصفحة ومواقفه، تحدد وجوده في المجموعات الافتراضية، أخذاً بعين الاعتبار معدل استخدامه تردده اليومي على صفحات المجتمع الافتراضي، على اعتبار أنه كلما زاد حضور المستخدم زادت حاجته إلى عرض الذات، وتبادل المعلومات مع المجموعات ذات الاهتمام المشترك.

هوامش الدراسة:

- 1- د . عبد الرحيم العطري، احتمالات التحول القيمي - صيغ التفاوض والترميقي، الحوار المتمدن، 2015.
- 2- لاروس 2012، ص 406.
- 3- لسان العرب لابن منظور، [376-375/15]، دار صادر، بيروت - لبنان.
- 4- J . P BLOCH , IDENTITY THIEF, KINDLE EDITION, 1992, P 295
- 5 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط ، المنوفية، مكتبة الصحوة ، ص 1039.
- 6- Jean-Paul Sartre, L'Être et le Néant, EDITION GAILIMARD, 1943, p 89.
- 7-- pierre tap, identité, style personnel et transformation des rôles sociaux, 1987, p 59
- 8- pierre tap, identité, style personnel et transformation des rôles sociaux, 1987, p 59.
- 9- محمد عبد الجابري، المنهاج التجريبي وتطور الفكر العالمي، دار الطليعة بيروت، الطبعة الثانية، 1982، ص 722.
- 10 - د . فتيحة كركوش، إشكالية بناء الهوية النفسية الاجتماعية- دراسة تحليلية نقدية، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 16، 2014.
- 11- محمد شريف عبد الرحمان: " الهوية الثقافية لطلاب الجامعات الخاصة في ظل العولمة"، دار الهدى للنشر والتوزيع، مصر 2008، ص 59.
- 12 - روزنتال و ب. يودين. الموسوعة الفلسفية. ترجمة سمير كرم. دار الطليعة للطباعة والنشر، ط 4 بيروت، لبنان، ص 564، 565.
- 13 - بومهرة ، نور الدين، الجزائر والعولمة، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2001، ص 212 .
- 14 - محمد صالح الهرماسي: مقارنة في إشكالية الهوية: المغرب العربي المعاصر، ط2، دار الفكر، دمشق سوريا، 2002، ص 26.
- 15 - بومهرة ، نور الدين، المرجع السابق، ص 212.

- ¹⁶ - هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2010 ص 93.
- ¹⁷ - عزمي بشارة، واقع وفكرة المجتمع المدني، قراءة شرق أوسطية. إشكاليات تعثر التحول الديمقراطي في الوطن العربي. مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية. - رام الله، 1997 - ص 391
- ¹⁸ - العياشي عنصر، ماهو المجتمع المدني، مجلة إنسانيات، 2001.
- ¹⁹ - http://www.webopedia.com/TERM/V/virtual_identity.html
- ²⁰ - بايوسف مسعودة، الهوية الافتراضية، الخصائص والأبعاد - دراسة استكشافية على عينة من المشتركين في المجتمعات الافتراضية، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، عدد خاص الملتقى الدولي الأول حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوقائفية في المجتمع الجزائري، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ص 470
- ²¹ - كلثوم بيبيمون، السياقات الثقافية الموجهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي، من التداول الافتراضي إلى الممارسات الواقعية مجلة إضافات، العدد 33، ص 77
- ²² - كلثوم بيبيمون، السياقات الثقافية الموجهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي، من التداول الافتراضي إلى الممارسات الواقعية مجلة إضافات، العدد 33، ص 72
- ²³ - المرجع السابق، ص 73
- ²⁴ - Fanny Georges, Les composantes de l'identit_e dans le web 2.0, une etude semiotique et statistique 2008, p 4
- ²⁵ - Fanny Georges, Les composantes de l'identit_e dans le web 2.0, une etude semiotique et statistique 2008, p 5
- ²⁶ - Sihem NAJAR, sociologue tunisienne, Professeur de l'enseignement supérieur en Sociologie
- ²⁷ - Sihem najar, Les pratiques sociales de l'Internet et les transformations des identités et des liens sociaux au Maghreb, revue géographique des pays méditerranéens, 2011.
- ²⁸ - كلثوم بيبيمون، السياقات الثقافية الموجهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي، من التداول الافتراضي إلى الممارسات الواقعية مجلة إضافات، العدد 33، ص 74.
- ²⁹ - د. عبد الغني عماد، الأنثوميديا والإعلام الشبكي وإشكالية الهوية، مركز نقد وتنوير للدراسات الإنسانية، أفريل 2016 ص 20.
- ³⁰ - كلثوم بيبيمون، السياقات الثقافية الموجهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي، من التداول الافتراضي إلى الممارسات الواقعية مجلة إضافات، العدد 33، ص 75
- 31- Rheingald Howard, les communauté virtuelles, addition-Wesley France, paris 1995, p 2
- ³² - كلثوم بيبيمون، السياقات الثقافية الموجهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي، من التداول الافتراضي إلى الممارسات الواقعية مجلة إضافات، العدد 33، ص 76 .
- ³³ - المرجع نفسه، ص 77.
- ³⁴ - مرعي توفيق وآخرون، الميسر في علم النفس الاجتماعي، دار الفرقان، ط2، عمان، 1984م، ص 217، 216.